الأطفالُ الذينَ أعرفهم ..

الذينَ ألعبُ معهم تحديداً ..

كانوا يركضونَ خلفَ الشمس ..

هكذا ؛ شمسٌ عاريةٌ تبللُ وجوههم ..

رغمَ أنها لا تـُمطر ..!

الأطفالُ كانوا يركضونَ خلفَ الشمس ..

وأنا كنتُ أبتسمُ وحيداً على مقعدِ الحديقة ..

عندما تكومتُ جانباً ..

وأخرجتُ الشمسَ من جيبي ..!

(2)
في طفولتي ..

كانَ الليلُ يزورُ أحدَ أصدقائي ..

وحينَ تعرفتُ عليه قاطعنا سوياً ..

ذاتَ مرةٍ أحسستُ بـ حركةٍ في [الليل] ..

وإذ بـ صديقي هذا يبكي قربَ الموقد ..

كانَ المينمُ كبيراً كـ سفينة ..

ذا برجينِ هائلين ..

كـ قرني ماعزٍ يحملُ الكرةَ الأرضية ..!

وكانَ يبكي ..

حينها إقتربتُ وبدأتُ أتأسف ..

صرخَ في وجهي :

أنتَ سببُ إبتعادِ الليل ؛ أكرهكَ ..!

بعدَ [ليلتين] من تلكَ الحادثة ..

سمعتُ حركةً في [الليل] ..

وإذ بـ صديقي هذا يبكي قربَ الموقد ..

أخبرني أنني لستُ السببَ في ابتعادِ الليل ..

حينها نظرتُ لـ أعلى ..

كانَ الميتمُ صغيراً ..

ضيقاً كـ حضن صبيٍ صغير ..

كانَ الميتمُ لا يتسعُ لـ [ثلاثة] ..!

(3)

كنتُ أرى في نفسي رجلاً ..

- هذا على الأقلَ ما كنتُ أراه -

وفي مرةٍ كنتُ ألعبُ بـ طائرٍ ورقيَ ..

أتذكرُ جيداً عينيهِ التي رسمتها بـ قلمٍ أزرق ..

وذيلهُ الذي كانَ مقطوعاً ..

الذي أمسكَ بهِ ابنُ الحيَ لـ يأخذهُ مني ..

فـ شددتهُ بـ قوة ..

وحينما هربَ أحسستُ بـ أنني رجل ..

تلكَ اللحظة ..

والتي كنتُ فيها أقفزُ من رصيفٍ إلى رصيف ..

اصطدمتُ بـ امرأةٍ حاملْ ..

كنتُ أنظرُ إلى التكورَ المخيفِ أمامها ..

وسألتها :

ما هذا ..؟

انحنت قليلاً بـ ألم :

هذا رجلُ جديد ..

حينها امتعضتُ وتجمّدَ الطيرُ في يدي :

رجلُ غيري وغيرَ أبي ..؟

ابتسمت :

نعم ؛ رجلُ غيركَ وغيرَ أبيكَ ..!

مضيتُ لا ألوي على شيء ..

فـ هيَ تكبرني سناً وجسماً ..

وإلا لـ أبرحتـُها ضرباً ..!

- هذا على الأقلَ ما كنتُ أشعرُ به -

لكنني ..

وحينَ عدتُ إلى المنزل بعدَ عام ..

وبَخَتني المشرفةُ كثيراً ..

وهدّدتْ بـ حبسي ..!

لكنني :

كنتُ أنظرُ بـ دهشةٍ إلى النكورَ المخيف أمامها ..

وأتساءل :

هذهِ الخبيثةُ حبستْ ذلكَ الرجلَ ..

لـ أنهُ خرجَ في نزهةٍ معَ تلكَ المرأة ..!

(4)

كانوا مقيَدينَ بـ إقامةٍ جبرية ..

لا أحدَ يراهم ..

لكنهم في منزلٍ فخم ..

لا يخرجونَ منه ..

وعندما يُنادى لـ صلاةِ العيد ..

أرى نوافذَ المنزل جميعها مشرعة ..

اللافتةُ على سورِ المنزل كانت تقول :

المرأةُ نصفها أخرس ..!

لم أكن أعلمُ ماذا تعني ..

ولم أكن أفكرُ بها كثيراً ..

بعدَ صلاةِ العيد ..

كنتُ أمسكُ بـ يدِ رجلٍ لا أعرفُ من هوَ ..

لكنهُ رجلٌ اختارَ اثنينٍ من الميتم ..

أنا وصديقي ..

بعدَ أن وقعَ على أوراق كثيرة ..

احتفظت ليَ المشرفةُ بـ نسخةٍ منها ؛ وقالت :

عندما تكبر سـ تأخذ هذه ..!

في قلبي كنتُ أتمنى أن أرى أنفها طويلاً ذاتَ يوم ..

أو أن تتمددَ أذنيها حتى تضطر لـ إخفائهما بـ قبعة ..!

كنتُ أسيرُ مع الرجلِ الأبيضِ هذا ..

والذي مرَ بنا قربَ المنزل ..

سألتُ بـ براءةٍ بعدَ مباشرةِ إزالتي لـ غلافِ الحلوى :

ماذا تعني هذهِ العبارة ..؟

ضحكَ كثيراً ، قائلاً :

أنتَ عفريت ..!

في اليوم التالي ..

لبستُ غطاءَ سريري الأبيض ..

وسرتُ في أرجاءِ الميتم ..

وحينَ رأتني المشرفة ُ تطايرَ الغضبُ من عينيها ..

وحملتني بـ يدٍ واحدةٍ وسارت ..

كنتُ أرى الأشياءَ في الميتم ِ وهيَ تبتعد ..

في حين ِ أنها تسيرُ إلى الأمام ..

ولم أعلم متى ينتهي هذا ..!

سارت مسافة ً طويلة ً إلى الأعلى ..

ثمَ أودعتني في حجرةٍ أعلى البرج ..

وأغلقت الباب ..

أولُ شيءٍ فعلتهُ هوَ إحضارُ صندوق ٍ :

ووضعتهُ أسفلَ النافذة ..

وحينَ نظرتُ تفاجأتُ وسقطت ..!

كانت النافذة ُ تطلَ على منزل المقيدين ..

وفهمتُ جيداً ما تعنيهِ عبارة ُ :

المرأة ُ نصفها أخرس ..!

كانوا مقيَدينَ بـ إقامةٍ جبرية ..

لا أحدَ يراهم ..

لكنهم في منزلٍ فخم ..

لا يخرجونَ منه ..

لكنَ أحدهم تمكَنَ منَ الفرار ..

خرجَ من ذلكَ المنزل ..

لكنَ خروجهُ كانَ :

خبرَ موتٍ في جريدة ..!

(5)
الحريقُ يُخرجُ دخانهُ من رأسي ..

والرجلُ القريبُ مني :

يسكبُ دلوَ ماءٍ كاملٍ فوقي ..

وحيثُ أني لا أنطفئ :

يُخرجُ سيجارةً ويُشعلها من عيني اليُمنى ..!

(6)
السيجارةُ التي أدخنها ..

تمتزجُ جيداً بـ طعمِ الطفولةِ في ذاكرتي ..

حينما كنتُ طفلاً في السادسة ..

كنتُ أراقبُ أولئكَ الذينَ يُشعلونَ سجائرهم ..

ثمَ ينفثونَ الدخانَ بـ أشكالَ مختلفة ..

أحدهم قوسَ شفتيهِ وأخرجَ دائرة ..

والآخر حركَ رأسهُ يميناً ويساراً ..

فـ خرجتْ امرأةٌ ترقص ..

وأنا ..

أرى امرأةً تغوي الليلَ في عينيَ ..

وأسحبُ رأسي إلى الخلفِ وأنفثُ الدخان ..

وأتمنى أن يخرجَ في شكلِ رمحٍ لـ أقتلها ..!

(7)
في الميتمِ لم نكُن نقرأ ..

فـ في السنةِ التي تعلمتُ فيها القراءة ..

كانَ صديقي قد غادرَ معَ الرجل الأبيض ..

وأنا ؛ نسيتُ القراءةَ تدريجياً ..

لـ سببين :

أحدهما أنني لم أقرأ منذ زمن ..

والآخرُ أنني دُهشتُ حينَ عرفتُ :

معنى [المرأةُ نصفها أخرس] ..!

(8)
بعد سنتين ونصف جاءَ صديقي إليَ ..

كانَ يحملُ حقيبةً مملوءةً بـ الطعام والحلوى ..

وكانَ حينَ يُخرجُ أحدها يهمسُ لي بـ اسمه ..

في مرةٍ وقبلَ أن يُخرجَ إحدى الحلوى ..

قالَ :

ما رأيكَ في طعمِ الفراولة ..

كنتُ في التاسعةِ حينها ..

وتخيلتُ وأنا أمسحُ بقايا الشوكولا شكلَ الفراولة ..

أو طعمها ..

بـ نظرةٍ تشبهُ النعسانَ دارتْ قصصٌ كثيرةٌ بـ رأسي ..

منها رجلٌ أعرجُ كانَ يحملُ تفاحةً قديمة ..

وكانَ يأكلُ بعضها ويقضمُ البعضَ الآخر ..

ثمَ يلفظهُ خارجاً ..

صِحتُ :

لا أحبَ طعمَ الفراولة ..

ضحكَ صديقي متسائلاً ..

فـ أخبرتهُ عن طعمها ..!

حينها أمسكَ بـ يدي ..

ووضعَ شيئاً أحمرَ بها ..

لـ الوهلةِ الأولى تذكرتُ بطلَ قصةٍ إسمهُ " زيس " ..

وتذكرتُ " عينَ " التنين الحمراء التي إقتلعها ..

ثمَ تذكرتُ أنَ الفراولةَ حلوى تؤكل ..

لكنها لا " ترى " شيئاً ..!

(9)

مرَت سنتانِ منذ ذلكَ الوقت ..

ولم أرَ صديقي ..!

لكنني في تلكَ الأثناء كنتُ أحاولُ جاهداً التخلصَ منَ الميتم ..

المشرفةُ بانت عجوزاً ..

وكانت تحملُ طفلها معها ..

وأنا أتذكرُ كلما كبرتُ ذلكَ الرجلُ المحبوس ..

كيفَ أنها حبستهُ طويلاً :

حتى أصبحَ صغيراً ..!

علمت المشرفة ُ حكايتي مع َ الرجل ..

وصارت تهددني إن لم أنم ..

بـ أنها سوف َ تحبسني ..

أحياناً في [الليل] أفتح ُ عيني َ ..

وأتفقد ُ جسمي ..

وأعرف ُ مقاس َ ساقي تماماً ..

وأقيسه ُ كل َ [ليلتين ِ] أو أكثر ..

ذات َ مرة ٍ وأنا أقيس ساقي ..

أحسست ُ بـ حركة ٍ قرب َ الموقد ..

وإذ بـ الليل ِ يبكي ..

حينها ترنحت ُ وسقطت ُ من خيبة ِ الأمل :

المشرفة ُ حبست [الليل َ] في المينم ..!

(10)

تعرفت ُ على صبية ٍ في الحي َ القريب ..

وكنت ُ أركض ُ مع أحدهم ..

كان َ [أبرصاً] ..

وكان َ الأطفال ُ ينهامسون َ إذا مشيت ُ قربهم ..

وذات َ مرة ٍ استوقفت ُ صديقي وسألته ُ عن هذا البرص ..

قال َ أنه ُ حينما كان َ صغيراً جداً ..

أحضر َ أباه ُ [شمساً] كبيرة ً إلى المنزل ..

ووضعها على الطاولة ..

وكيف َ أنه ُ جيئة ً وذهاباً كان َ يقضم ُ من هذه ِ الشمس ..

وفجأةً أخذهُ أبوهُ إلى الطبيب ..

وكانَ ساخناً لـ أنهُ أكل [الشمس] ..

حينها ؛ وبعدَ أيام قليلة ..

بدأ جلدهُ [يُشرق] ..!

إعتذرتُ لـ صديقي ..

وأخبرتهُ بـ ضرورةِ عودتي إلى المنزل ..

وفي طريقِ العودةِ :

استدرتُ عندَ حاويةِ نفايةٍ في زاويةِ الحيَ ..

وأخرجتُ الشمسَ من جيبي ..

وألقيتها في الحاويةِ وركضت ..!

[الليلُ] كانَ غاضباً مني ..

غاضبُ لـ أنني ألقيتُ الشمسَ في حاوية ..

وأخذ يوبّخني طوال [الليل] ..!

(12)

استندتُ على سورِ الحديقة ..

بعدَ أن ركضتُ طويلاً هارباً من المنزل ..

استغليتُ فرصةَ غيابِ المشرفة ..

- كانت غائبةً لـ ما يُقارب الأسبوع -

وفي غيابها عطفت عليَ امرأة ٌ شابة ..

كانت تغسلني بـ ماءٍ دافئ ..

ولا تهدئني بـ حبسي مثلما دُبسَ الرجل ..!

ذاتَ مساءٍ ودعتني ..

وقالت أنَ المشرفة َ سـ تعود ..

وأنها سـ تشتاقُ إليَ ..!

لم أتذكر إن كنتُ بكيتُ أو لا ..

لكنني ودَعتُ الليلَ قربَ الموقد ..

بعدَ فشلي في إقناعهِ بـ الهرب ..

وركضتُ كثيراً ..

وبعدَ كلَ مسافةٍ أقطعها ..

أنظرُ إلى المينم ..

وأراهُ صغيراً ؛ وأسأل :

كيفَ كانَ يتسعُ لي ولـ من كانوا معي ..؟

إستندتُ على سور الحديقة ..

بعدَ أن ركضتُ كثيراً هارباً من المينم ..

حينها توقفتْ عربة ُ أحدهم ..

وترجلت إمرأة ٌ يُشبهُ صوتها صوتَ المشرفة :

ماذا تفعلُ هنا هذهِ الساعة ..!

(13)

الصندوقُ كـ ما هوَ [أسفلُ النافذة] ..

والحجرة ُ في أعلى البرج ِ كانت باردة ..

لم أعرفْ بعدُ ما هوَ المطر ..

فـ في الميتم النوافذُ عاليةً جداً ..

لا نرى منها سوى [الشمس] ..!

وأتذكرُ كيفَ كانَ الصبيةُ في الصباحِ يهزؤونَ مني ..

حينَ يقولونَ من أينَ [نزلَ] المطر ..؟

فـ أقولُ لهم :

من هنا ، وأنا أشيرُ إلى أعلى بنايةٍ في المدينة ..!

في هذهِ الأثناء تعجبتُ من النافذة ..

وكيفَ أنها كانت تبكي ..

ويقطرُ [الماءُ] منها ..

فـ صرختُ :

النافذةُ تبكي ، النافذةُ تبكي ..!

وسمعتُ صوتَ المشرفةِ تقول :

سـ أحبسكَ أيها الـ .. ..!

(14)

صديقي أرسلَ لي بريداً ..

فتحتهُ المشرفةُ في غيابي ..

عندما عدتُ أعطتني ورقةً مجعدة ..

كنتُ أقرؤها بـ شيءٍ من الصعوبة ..

ومنها عرفتُ أنَ صديقي كـ ما يقول :

قد التحقَ بـ مدرسةٍ نموذجية ..

كنتُ أسألُ المشرفةَ عن بعض الكلمات ..

والتي كانت تجيبني بـ إستهزاء ..

وأحياناً تصرخُ ولا تجيبني ..

لكنني رغمَ هذا :

أكْمِلُ قراءتي متمدداً على صدري ..

وساقيَ يتطايرانَ في الهواء ..!

في نهايةِ الرسالةِ قالَ صديقي :

" أرجوا أن يُعجبكَ الملبَس "

ها أنا ذا أعودُ لـ قصصي القديمة ..

وأتخيلُ شكلَ الملبَس ..

لكنني لم أتخيلهُ " عارياً " مثلاً ..!

لم أتخيلْ شكلهُ أبداً رغمَ المحاولات ..

حينها سألتُ المشرفةَ عن الملبَس خاصتي ..

حذرتني بـ أنهُ إن لم أكفَ عن تهيؤاتي سـ تحبسني ..!

وضعتُ الرسالةَ في جيبي الأيسر ..

خوفاً من أن تـُشرقَ إن وضعتها في الأيمن ..!

ونمتُ حتى الصباح ..

وعندما إستفقتُ تذكرتُ [الليل] ..

وكيفَ أني لم أسألهُ عن شكل الملبَس ..

قمتُ مسرعاً إلى خزانةِ ثيابي ..

والتي لم تكُنْ في العليةِ كـ الروايات الحزينة ..

كانت خزانةُ ثيابي حقيبةً لـ أحد أفراد الجيش ..

والذي أودِعَ ابنهُ في الميتم بعدَ وفاته ..

وحينَ إنتهيتُ من إرتداءِ الثياب ..

خرجتُ إلى الفناءِ الخلفيَ ..

وبدأتُ ألعبُ في أرجوحةٍ صنعها أطفالُ :

لم أرَهم في المينم من قبل ..

لكنني كنتُ أسمعُ عنهم بعضَ القصص من المشرفة ..

حينها إنتبهتُ لـ الطفل الذي يرافقها يقول :

" لقد أضعتُ آخرَ قطعةٍ من الملبَس "

حزنتُ كثيراً يا صديقي ..

حزنتُ كثيراً لـ أنني لم أتعرف على شكله ..!

(15)
الأربعاءُ الأكثرُ حزناً ..

كانَ المنزلُ الفخمُ أمامنا يعجَ بـ الناس ..

وكانَ صوتَ مزعجَ يصدرُ عن إحدى العربات ..

منعتني صاحبةُ الأنفِ الطويل من الخروج ..

وكانت تختلسُ من شقَ البابِ النظر ..

وأمامها الطفلُ الذي يرافقها دائماً ..

والذي كانَ مدللاً جداً ..

لم أفهم لمَ كانت تفضلهُ عليَ ..

- الحياةُ مليئةُ بـ الأشياءِ التي لا أفهمها -

منها الصوتُ المزعج ..

والأربعاء الأكثرُ حزناً ..

والمنزلُ الفخم ..

الذي اشتراهُ رجلُ ثريٍ يُدعى " زيس " ..!

(16)
الكلماتُ التي أنطقها ..

لم تعد بـ الشكل الذي أريد ..

مرةً وحينَ كنتُ أسقي الشجرةَ في الحديقةِ الخلفية ..

شعرتُ بـ هواءٍ يتجمعُ داخلي ..

وشعرتُ أني سـ أستفرغ ..

لكنني لم أستفرغ ..

تجشأتُ كـ طفلٍ لا يعلمُ لـ هذا الفعلِ اسماً ..!

وحينَ كانت هذهِ أولَ مرة ..

فـ قد أغمضتُ عينيَ ..

وأحسستُ بـ مخاضِ رئتيَ وجوفي ..

لكنني فتحتُ عينيَ مجدداً ..

ووجدتُ سنجاباً ..!

دهشتُ كثيراً ..

فـ المشرفةُ نكرهُ السناجب ..

كنتُ أفكرُ دائماً أنَ أنفها سـ يُصبحُ أطول ..

لـ ذلكَ هيَ لا نريدُ لـ سنجابٍ أن يعيشَ داخله ..!

لكنني اكتشفتُ أنها نكرهُ السناجبَ لـ سببٍ آخر ..

هوَ ذاتُ السببِ الذي جعل المرأةَ في المنزل المجاور :

نصفها أخرس ..!

في تلكَ الأثناء سمعتُ الطفلَ الذي يُرافقُ المشرفةَ يبكي ..

ويتمتمُ بـ أشياءَ لم أتبيّنها ..

لكنني انتبهتُ لـ اسمي من بينِ كلماته ..

وحالاً بدأتُ أركضُ إلى أقصى طرفٍ في الحديقةِ الخلفية ..

إلى أن تعثرتُ بـ غصنٍ مائلٍ من أعلى شجرةٍ عجوز ..

ولـ أنني بريءٌ كـ ما قالتْ لي الشابةُ التي اعتنتْ بي :

في غيابِ المشرفةِ منذ بضعةِ أسابيع ..

فـ قد كلمتني الشجرة ..

وتحققتْ كلماتُ الشابة اللطيفة :

سـ تكلمكَ عجوزٌ لم يلدها رحمٌ ؛ لكنها خرجتْ بـ أيادٍ كثيرة ..!

لم أفزع حينما كلمتني الشجرةُ المهملة ..

لكنني حزنتُ لـ أنَ صديقي ليسَ معي ..

ولم يعرف [شكلَ] الشجرةِ التي تتكلم ..!

قالتْ : حذارِ من الركض بـ هذهِ الطريقة ..

وحينَ تكلمتْ مرةً أخرى :

غبتُ عن الوعي ..

وأفقتُ بعد مدةٍ يعلوني وجهُ امرأةٍ أمقتها ..

صوتُ امرأةٍ لم يُصبح أنفها طويلاً بعد ..!

(17)

أصبحَ الثلجُ يملأ المكان ..

كانَ الخروجُ في الشتاءِ صعباً ..

لا أملكُ حذاءً مرتفعاً كـ ما يملكهُ طفلُ المشرفة ..

- الآنَ فقط عرفتُ من هوَ -

الشتاءُ كانَ جميلاً بـ النسبةِ لي ..

فـ حينما أتكلمُ أشعرُ وكـ أني ننينَ بارد ..

يُخرجُ الدخانَ من صدرهِ تلقائياً ..

لكنني كنتُ أخشى أن يحترقَ داخلي ..

وكانَ الأمرُ غريباً تلكَ الأيام ..

فـ في الصيفِ وحينَ كانت الشمسُ تبللُ وجوهَ الأطفال ..

لم يكن لزاماً عليَ الاستحمامُ يومياً ..

بـ الرغم من أنَ المشرفة َ كانت تقول :

الماءُ الذي نسكبهُ عليكَ نشربهُ أقدامكَ ..

لكنكَ كـ شجرةٍ منعفنةٍ لا تنضجُ ولا تكبر ..!

وفي الشتاءِ كنتُ أجتهدُ يومياً لـ أخذِ حمامٍ دافئ ..

هذا على الأقلَ ما كانَ يُنسيني وجبة َ الغداءِ الناقصة ..

وفي يومٍ ارتفعتْ حرارتي ..

وأيقنتُ أنني أحترق ..

وكنتُ أتمنى ألا [أ ُشرقَ] كـ صبيَ الحيَ ..

وبَخنني المشرفة ُ كثيراً ..

فـ هيَ لا تريدُ أن تسهرَ في الميتم ..

ولا أعرفُ لـ ماذا أيضاً ..

الذي يهمني الآنَ :

هوَ ألا أ ُشرقَ كـ صبيَ الحي ..

أو أن يتهامسُ الأطفالُ إذا مررتُ من أمامهم ..

بعدَ أيامٍ أصبحتُ طبيعياً ..

وكـ العادةِ بدأتُ أقيسُ طولَ ساقيَ ..

وأجربُ صوتي :

لا لا ؛ لا لا لا لاااااااااا ..!

(18)

" زيس " ؛ الرجلُ الذي اشترى المنزلَ المجاور ..

كانَ يُقيمُ عدةَ حفلاتٍ أسبوعياً ..

منذ ذلكَ الوقت أصبحُ الطعامُ يملأ الميتم ..

كانَ شهياً وغريباً ..

وكنتُ أكرهُ الشيءَ الأبيض الذي بـ داخلهِ مشط ..!

مرةً ابتلعتُ أحدَ هذهِ الأسنان ..

وأتذكرُ جيداً أنني صرختُ وركضتْ ..

حتى ضجرت مني المشرفة ..

الآنَ هي عجوزٌ تضجرُ دائماً لـ أقلَ شيء ..

أمسكت بي ..

وبدأتْ تلقمني ملاعقَ من الخلَ ..

كنتُ أبكي كثيراً ..

لكن ، وسرعانَ ما زالَ سنَ المشط من داخلي ..

لـ أولِ مرةٍ تحتضنني المشرفة ..

لـ أولِ مرةٍ ألمسُ ذلكَ الكائن الهائل ..

ولـ أولِ مرةٍ أيضاً تمنيتُ أن تحبسني ..!

(19)

اليومُ الذي تلى العيد كنتُ أسيرُ وحيداً ..

بعدَ أن انسخت ملابسي بـ ماءٍ تطايرَ من عربةٍ مسرعة ..

الأمرُ يُربكني ..

فـ حينَ أعودُ سـ أضطرُ لـ غسل ملابسي ..

الأمرُ الذي يجعلني عارياً مدةَ مساءٍ كامل ..!

(20)
ذلكَ الصغيرُ الذي يُسمى [حزن] ..

انسلخَ من جسدي ذاتَ ليلةٍ ..

واشتهر ..!

(21)
الأحدُ [أصغرُ] الأيام ..

لـ ذلكَ أعفوهُ عن العمل ..!

(22)
قبلَ سنينَ من الآن ..

أوقفتني امرأةٌ في الطريقِ المؤدي إلى الوادي ..

وقالت لا تبكـِ ؛ سـ تشعرُ بـ وخزٍ بسيط ..

ثمَ رفعتْ ذراعي قليلاً ومسحتهُ بـ منديلٍ مبلول ..

وحقنتني ..!

الجرحُ كانَ ضئيلاً ..

كانَ صغيراً لـ درجةِ أنني انتظرتُ خروجَ نملةٍ منه ..!

في المساءِ انتفخَ ذلكَ الجزءُ من يدي ..

وتذكرتُ كلامَ المشرفة :

الماءُ الذي تسكبهُ عليكَ تشربهُ قدماك ..

لكنكَ كـ شجرةٍ منعفنةٍ لا تنضجُ ولا تكبر ..

وقلتُ :

الآنَ عرفتُ لمَ تضخمَ الجرح ..!

كنتُ أنتظرُ أياماً كثيرةً لـ تطولَ ذراعي ..

وكنتُ أقيسها يومياً بـ خطٍ مرسومٍ على الجدار :

أقفُ على يديَ معلقاً في الهواءِ جسدي ..

وأنظرُ إلى الخطِ وذراعي ..

لم تطل يدي أبداً ..!

ولـ ذلكَ قررتُ أن أبحثَ عن المرأة قربَ الوادي ..

انتظرتها طويلاً حتى غابت الشمس ..

وندمتُ على رميي الشمسَ في الحاوية ..!

(23)
كانَ النهارُ هادئاً ..

والعصفورُ الذي أستفيقُ على صوتهِ لم يأتِ ..

لـ ذلكَ نمتُ طويلاً ..

طويلاً جداً لـ مدةٍ تكفي :

لـ قطعِ المسافةِ حولَ رأسي مرتين ..!

(24)
امتلكتُ صندوقاً موسيقياً ..

أرسلهُ لي صديقي ..

كنتُ لا أستطيعُ فتحهُ كلَ الوقت ..

فـ قد كانَ يُزعجُ طفلَ المشرفة ..

والذي حاولَ كثيراً أن يكسره ..

الجميلُ فيهِ أنهُ صغيرٌ لـ درجةِ وضعهِ في جيبي ..

كانت الموسيقى التي تخرجُ منهُ رائعة ..

أشعرُ معها بـ طعمٍ لـ كلَ شيء :

الهواءُ منديلٌ معطر ..

الماءُ شابةٌ لطيفةٌ كانت تعتني بي ..

البردُ هواءٌ خائفٌ حتى أصبحَ أزرقاً ..

المدينةُ بـ رمتها حصانٌ نائم ..

وأعرفُ طعمَ الحصان ..

مرةً كادَ يدهسني حصانٌ بـ حافريهِ الأماميين ..

وحينَ سقطتُ ..

وكانَ هوَ " منتصراً " يركضُ في الهواء ..

رجعَ إلى الوراء ..

وجعلَ ينظرُ لي بـ عينيهِ الكبيرتين ..

في بادئ الأمرُ ظننتُ عينيهِ :

زيتونتانِ أهملهما مزارعٌ فـ جعلتْ تكبرُ وتكبر ..

لـ ذلكَ لمعتْ عينهُ فـ اهتز رأسهُ قليلاً ..

حينها أدركتُ أنَ الحصانَ طعمهُ " عنيد " ..!

كلَ الأشياءِ كنتُ أعرفُ طعمها ..

وحينَ أسمعُ الموسيقى ..

أعرفُ شكلها أيضاً ..

إلا الملبَس ..

فـ الموسيقى يا صديقي :

لا تعرفُ أيضاً شكلَ الملبَس ..!

(25)

أستخدمُ عقلي الصغير جداً لـ أتذكرَ الحروف ..

وأتذكرُ الكلماتِ التي كنتُ أقرؤها ..

في صغري كانت الكلماتُ أسهل ..

إذ حينما لا تنطقها بـ الشكل الصحيح ِ :

لا يحدثُ شيء ..!

لكنني كبرتُ الآن ..

وأصبحَ ما أنطقهُ خطأً هوَ سببُ وجيهُ لـ " العلية " ..

وعرفتُ ذلكَ حينما أخطأتُ وقرأتُ :

الـ " ورد " " قرد " ..

وظنت المشرفة ُ أنني أهزأ بـ اسم طفلها ..!

(26)

كانَ في وُسعي قضاءُ [الليل ِ] هكذا ..

الكلماتُ التي أتمتمُ بها لـ [الليل] لم تعد مهمة ..

كانَ صديقي الجديد هذا قربَ الموقدِ دائماً ..

لم يعُد يتحدثُ معي ..

مرة ً شكوتُ ما يحدثُ لـ الشجرةِ العجوز ..

أخبرتني أنني كبرت ..

وتغيرت لغتي ..

أريدُ أن أعودَ صبياً صغيراً ..

أريدُ أن أتحدثَ مع الأشياء ..

فكرة ُ حبس نفسي داخلَ المشرفةِ لم تجدِ ..

فـ حينما شاغبتُ وشاغبتُ وشاغبتُ ..

ظننتُ أنها سـ تحبسني ..

لكنني إكتشفتُ أنها لم تعد قادرةً على ذلك ..

أو لم تستطع إلا مرةً واحدةً مع الرجل ..

خابَ ظني كثيراً ..

وأصبتُ بـ إحباطٍ جعلني عازفاً عن الأكل ..

قميصي الأحمرُ اتسخَ كثيراً ..

لم يعُد يهمني أن أكونَ عارياً بعد ..

أن أغسلَ ملابسي لـ نهارٍ كامل ..

أو لـ مساءٍ ناقص ..

[الليلُ] ؛ والذي لم يعُد يتحدثُ معي ..

غادرَ المينا ..

وبقيتُ وحيداً والموقدُ القديم ..

الأشياءُ حينما تكبرُ تفقدُ قيمتها ..

تفقدُ قدرتها على التحدثِ معك ..

الموسيقى حينما كبرت ..

صارت تـُعطيني طعماً مختلفاً عما كنتُ أعرف ..

ذاكرةُ الموسيقى إهترأت ..!

(27)

طفولتي كانت بسيطة ..

لـ درجةٍ تعجزُ معها ذاكرتي :

أن تأتي بـ تشبيهٍ بلاغيٍ واحد ..!

(28)

هذا [اليومُ] الجاثمُ على صدري ..

وَ [الغدُ] المحذوفُ من الحكاية ..

هذا [المساءُ] الأحمق ..

[الجرحُ] الغائر ..

[الوترُ] المقطوع ..

هذا يا صديقي ما أجدهُ دائماً ..

الميتمُ [لعنةٌ] قامَ بها إنسانٌ غبيٌ ..

سجنُ أطفالٍ بـ مسمّىً بريء ..

يا صديقي ؛ فـ انتشلني من هنا ..

المشرفةُ ؛ دودةٌ تنخرُ قواي ..

المشرفةُ ؛ أمٌ لا تمارسُ وظيفتها بـ عدل ..

الميتمُ ليسَ مبنىً ذا برجين ..

بل [حمارٌ] واقفٌ بـ أذنيهِ الطويلتين ..

هذا الصوتُ الخارجُ من الموقد ..

والهمسُ الذي يلجُ العليةَ :

من هواءٍ ظلَ الطريقَ إلى رئتيَ ..

هذا كلهُ يجعلني أتكلمُ وحيداً ..

وأرسمُ طفلاً بـ أسنانَ حادة على الحائط ..

وأنا أرى فكَ أحدهم موشوماً على ذراعي ..

أنا أذوي يا صديقي ..

وأضعفُ تدريجياً ..

وحينَ أريدُ أن ألهو قليلاً :

أضعُ كلتا يديَ في كمٍ واحد ..

وأصافحُ اليدَ الأخرى في الهواء ..!

(29)

اليومُ الأولُ خارجاً بعدَ ثلاثةِ أسابيعَ من " العلية " ..

الهواءُ رطبٌ جداً ..

والمكانُ لم يتغير ..

عرفتُ الديكَ كما أعرفهُ منتصباً ..

كنتُ أتعجبُ من أنَ الديكَ لا يصيحُ خلالَ الظهر ..

وحينَ ألحقُ وراءهُ لا يعرفني ..

بل يهربُ مختبئاً عني في أماكنَ ضيقة ..

مشيتهُ التي يسبقهُ فيها رأسهُ ؛ مضحكة ..

لكنهُ لطيفٌ رغمَ عن هذا ..

مرةً أوشكتُ على الإمساكِ به ..

وحينَ اقتربتُ كثيراً سقطت ..

فـ جاءَ واعتلى ظهري ..

وأخذ يصيح ..

خرجت المشرفةُ على صياحهِ الذي أزعجها ..

فـ وجدتني ملقىً على الأرض بـ جرحٍ في ساقي اليُسرى ..

أخذتني المشرفةُ ووبَختني طويلاً ..

وبعدَ أن نزفَ الجرحُ لـ فترةٍ ترضيها ..

ضمدته ُ بـ انزعاج ..

وأنا أنظرُ بـ نمعن ٍ لـ يديها المرتجفتين ..

الدمُ الخارجُ مني لم يكن أخضراً ..

أو أحمرُ جداً ..

كانَ دمٌ بريءٌ لـ درجةِ أنني تخيلتُ :

أنهُ سـ يرفعُ يديهِ في السماء استسلاماً ..!

الديكُ الذي أخبرَ المشرفة َ عن جرحي ..

الذي نبّهها عن طفل ٍ لا أمَ له ..

لا أبَ يحملهُ على كتفيهِ ويركض ..

لا أخوة ٌ ينشاقى معهم ..

وينفقُ على سرقةِ تفاحةٍ من بابِ دكان ٍ مُغلق ..

ذلكَ الديكَ ..

كانَ وفياً جداً ..

لـ درجةِ أنهُ صارَ يوقظني بدلاً من العصفور ..!

(30)
الأيامُ لا تمضي سريعاً ..

بينما المشرفة ُ تكبرُ في السنَ ..

وباتَ يصدرُ صريرٌ حينما تتحرك ..

أو حينما تتحدث ..

كـ أنَ فمها بابٌ خشبيٌ قديم ..

وكـ أنَ مفاصلهُ إهترأت ..

" وأنا تعبتُ كثيراً من ترديد : أنفها لم يُصبح طويلاً "

قالت بـ صوتٍ هادئ :

يوماً ما سـ تكونُ حُراً ؛ لكنَ ذلكَ اليوم بعيد ..

ليسَ وأنا هنا ..!

إمتعضتُ كثيراً ..

وقطبتُ جبيني بـ قوة ..

أغمضتُ عينيَ وصرخت :

أنتِ إمرأة ٌ حلـَت عليها لعنة ٌ قديمة ..!

حينها ؛ وبـ برودٍ شديدٍ صفعتني ..

صفعتني لـ أستفيق من " شرودي " ..!

(31)
المنظرُ من سقفِ الميتم ِ جميل ..

هذا مخبأ ٌ لا يعرفهُ أحد ..

هذا مخبأ ٌ لم يعرفهُ أحدٌ بعد ..

إلا صديقي القديم ..

أووه ؛ لم أخبركم بـ إسمهِ من قبل ..

ولكن قبلَ هذا سـ أخبركم شيئاً :

السماءُ التي تمطرُ بـ هدوءٍ هيَ عيناه ..

ويدهُ الصغيرة ُ جداً ؛ كانت تحملُ أضعافَ حجمها من الألم ..

حينَ يدفنُ يديهِ في الثلج ..

أسمعُ أنيناً لـ الأرض ..

أسمعُ حركةً في القشرةِ السفلى ..

وحركةً في آخرِ المدينة ..

كانَ وفياً كـ مواعيدِ الشتاء ..

وفياً كـ هجرةِ طيور ..

ودافئاً كـ كوبِ شاي ..!

لن أخبركم عن صديقي ..

سوى ما يعرفهُ [الليلُ] عنه ..!

(32)

من قالَ أنَ التاريخَ يُعيدُ نفسه ..؟

إن كانَ هذا صحيحاً :

فـ من أينَ جاءَ الميتم ..

لم يكن في التاريخِ ميتمٌ من قبل ..

لم يكُن هناكَ ملبَسٌ مسروق ..

ولا امرأةٌ نصفُ خرساء ..!

اللونُ الأخضرُ يُعجبني ..

حينَ مررتُ على بائعِ خضارٍ في السوق ..

أعجبتْ بـ أصابعَ خضراءَ جميلة ..

وقفتُ مندهشاً من لينها ..

ومن دقةِ أطرافها كـ إبرةِ عملاق ..!

وقلتُ :

أصابعُ من هذه ..؟

ضحكَ البائعُ الذي أعطاني واحدةً منها ؛ وقال :

فقط ضعها في الماءِ حتى تنضج ..!

لم أصدق نفسي ..

الهدايا لم أعرفها منذ زمن ..

منذ سنتين ٍ ونصف من زيارةِ صاحبي القديم ..

ذهبتُ إلى الميتم ..

وأنا أخبئُ أصبعَ أحدهم في جيبي ..

كنتُ مطمئناً ؛ فـ لا توجدُ أناملُ في هذا العالم نـُشرق ..!

وصلتُ وفتحتُ البابَ وخلعتُ نعليَ وغسلتُ وجهي ..

يا الله ؛ كلَ هذهِ الأفعالُ دفعةً واحدة ؛ أمرَ مؤسف ..

وحينَ انتهيتُ من هذا كله ..

أخرجتُ الأصبعَ وربطتهُ في يدي ..

في بدايةِ الأمر احترت :

فـ هوَ أطولُ من جميع ِ أصابعي لو رصَصْتها فوقَ بعضها ..!

لكنني اخترتُ المكانَ المناسبَ لهُ تماماً ..

أعلى الوريد في ظهر كفي الأيمن ..

كانَ جميلاً ..

أصبعُ لا ينحدثُ بـ [أظافرَ] أطولُ من اللازم ..!

فجأةً ؛ تذكرتُ ما قالهُ البائع ..

وذهبتُ لـ إحضار ِ دلو ماء ..

ووضعتُ يدي فيهِ لـ نهار ٍ كامل ..

وحينَ تعبتْ ..

أغمضتُ عينيَ ..

أنا لا أريدُ أن أرى فروعاً تخرجُ من يدي ..

ولا أريدُ أن تطولَ يدي أكثر ..

أنا أوبّخُ نفسي حينَ تذكرتُ كلامَ البائعِ وَ نسيتُ كلامَ المشرفة :

" الماءُ الذي تسكبهُ عليكَ تشربهُ قدماكَ

لكنكَ كـ شجرةٍ متعفنةٍ لا تنضجُ ولا تكبر "

وأهجسُ :

ماذا لو فشلتْ قدميَ في شربِ الماء ..

ونجحتْ في ذلكَ يدي ..!

(33)
سـ أصومُ هذا اليوم ..!

- قالتْ المشرفةُ ذلكَ -

وأنا التقتُ بـ سرعةٍ لـ كلمةٍ جديدة :

أصوم ..!

ماذا تعني بـ حديثها ..؟

في الغالبِ كانَ ما تقولهُ المشرفةُ يعني أمرينِ فقط :

التوبيخُ ؛ أو الحبس ..!

وحيثُ أنها لا تستطيعُ حبسي كـ رجلٍ جديد ..

فـ إنها تستمرَ في توبيخي كثيراً ..

الأمرُ الذي دفعني إلى تجاهل ما تفعلهُ بي ..

لكني لا زلتُ أفكرُ في هذهِ الكلمة الجديدة ..

لم يُجدِ التفكيرُ بها طوالَ النهار ..

فـ نمتُ ممتعضاً ..

لكنني حلمتُ بـ المشرفةِ تقول :

[أصوم] ..!

كانت تقتربُ من وجهي في المنام ..

كانت تقتربُ حتى أصبحَ رأسي كاملاً في فمها ..

فمها الذي يحملُ سناً واحداً ..

سنٌ رُسِمَ عليهِ ملامحُ قديسٍ قديم ..

قمتُ فزعاً ..

قمتُ أركضُ طويلاً ..

حينها ..

رأيتُ المشرفةَ في فناءِ المبنى ..

كانت تبكي ..

وتقولُ سامحني يا .... ..

لـ ماذا أسامحُ امرأةً سـ يكبرُ أنفها ..

ويعيشُ بهِ سنجاب ..!

(34)

أيامي باتت أقصر من المعتاد ..

فـ النومُ الإجباريَ مبكراً ..

صارَ عقاباً جديداً لي ..

لم أكن أهتمَ كثيراً لـ هذا ..

لكنني أحتاجُ وقتاً أطولَ كلَ يوم ..

لـ ينمو أصبعي الجديد ..!

(35)

لو كانَ لـ الصوتِ [لونُ] :

لـ عرفنا وجهَ الريح ..!

(36)

الطفلُ النائمُ قربي جديدُ على هذا المكان ..

أتذكرُ كيفَ أتى مساءً ..

وكيفَ استقبلتهُ المشرفةُ بـ ابتسامةٍ وأخذت تلاعبه ..

وأنا في نفسي أقول :

سـ تتمنى أيها الجديدُ أن يُصبحَ أنفها طويلاً ..!

والمرأةُ التي أحضرتهُ كانت غريبة ..

فـ كلماتها لم تتعدى كلماتِ رجلٍ يُسلمُ بضاعة :

هذا هوَ ..!

كيفَ " هذا هوَ " ..؟

في اليوم التالي عندما أفقنا ..

أخذتُ أرتبُ غطائي القصير ..

وما زالَ الولدُ نائماً ..

كنتُ أريدُ إيقاظهُ لكني قلتُ في نفسي :

دعهُ يأخذُ درساً ولا يحتاجُ بعدها إليَ ..!

ولم يُكملْ ضميري - الذي لا يريدُ أن يؤذي هذا الصغيرُ - كلامهُ :

حتى أنتِ المشرفةُ بـ قش التنظيف ..

الذي سقطَ عامودياً على رأسه ..!

فزَ ذلكَ الطفلُ خائفاً ..

وأشارتْ إليهِ بـ يدٍ ثابتةٍ كـ فزاعةِ حقل ..

هذا يعني إلى الحمّام ..!

عوّضتُ صديقي الجديدَ عن هذا الألم ..

ورتبتُ عنهُ غطاءه ..

لكنَ هذا الأمر لم يُعجب المشرفة ..

فـ قالت :

لا وجبةَ إفطارٍ لكَ هذا اليوم ..!

لا يهمَ ..

فـ أنا منذ ثلاثةِ أسابيعَ لم أتناولْ وجبةَ الإفطار ..!

خرجتُ الآنَ إلى الفناء الأماميَ ..

هذا الفناءُ الذي سقطَ بهِ رجلُ أسود ..

كانَ يضربهُ ربَ عملهِ بـ قسوة ..

ولم يتجرأ أحدُ على إفلاتهِ منه ..

فـ الأمرُ طبيعيَ في هذهِ الأنحاء ..!

صديقي ليسَ أسوداً ..

وإلا لـ ما أتى إلى الميتم ..

هذا الأمرُ الوحيدُ الذي يُفرحني ..!

شعرتُ بـ صوتِ أحدهم خلفي ..

وحينَ التفتُ وجدتُ الطفلَ وبـ يدهِ قطعةُ خبز ..

كنتُ حليقَ الشعرِ حينها ..

أما هوَ :

فـ شعرهُ كثيفٌ كـ [مشروعِ غوريلا] فاشل ..!

ضحكتُ كثيراً عندما رأيته ..

لكنهُ مدَ بـ يدهِ التي تحملُ الخبز ، وقال :

هذا لـ إفطارك ..

حينها دُهشت ..

صوتهُ يشبهُ تماماً صوتَ [الفراولة] ..!

(37)

ماذا سـ يفعلُ المتهم ..؟

يُوكلُ محامياً ..

وبعدَ زمنٍ يُرافعُ عن نفسه ..

وبعدَ ذلكَ يُصبحُ مستمعاً ..

ثمَ شاهداً ..

ثمَ ضحيةً ..

ثمَ طليقاً ..

ثمَ يُوكلُ محامياً آخرَ يُعوضهُ عن عمرهِ عندما كانَ طليقاً ..

فـ صارَ فجأةً ضحيةَ أحدهم ..

بعدَ أنْ كانَ شاهداً [يستمع] ..

ثمَ يُرافعُ عن نفسهِ فترة ً قبلَ أن يُوكلَ محامٍ ..

لـ يؤولَ بهِ الأمرُ إلى منهم ..!

(38)

في طريقهِ إلى الخارجِ ؛ قالَ صديقي :

ماذا حلَ بـ الشجرةِ العجوز ..؟

قلتُ أتعرفها ..؟

قالَ لا ؛ لكني سمعتُ عنها ..

تعجبتُ كثيراً وصمتُ ..

وتداركتُ صمتي بـ الركضِ إلى الشجرةِ العجوز ..

قربَ الشجرةِ توجدُ حفرة ٌ عميقة ..

مدخلها بـ حجمِ قبضةِ أحدهم ..

في بادئِ الأمرِ ظننتها فماً تتنفسُ منهُ العجوز ..

وبعدَ مدةٍ قلتُ عنها أنها عينَ فقأها العطش ..!

ثمَ انتهيتُ إلى خلاصةٍ نقولُ :

أنَ الحفرة َ هيَ منزلُ ابنُ الشجرةِ الذي خبـأتـهُ فيهِ ..

خوفاً عليهِ من المشرفة ..!

(39)

المرأة ُ التي أحضرت صديقي الجديد ..

كانت تتردد ُ على المكانِ بـ شكلٍ متفاوت ..

وحينما تحضرُ كانت تضعُ قبعة ً دائرية ً كبيرة ..

فـ نشبهُ " زحلَ " في المساء ..

إلا أنها لا تدورُ حولَ المينم ..

بل تقفُ على مسافةٍ تكفي لـ تفرَس ملامحِ أحدهم ..

المرأة ُ التي أحضرتْ صديقي الجديد ..

كانت تعرفُ أنني اكتشفتُ من هي ..

لـ ذلكَ أحضرتْ لي قطعة َ حلوى ..

وأوصتني أن أعتني بـ الطفل ..

منذ هذا الوقت ..

وأنا أشي إليها بـ أخباره ..

وما أن علمتِ بـ ذلكَ المشرفة ..

حملتني إلى العلية ..

ووضعتِ الصغيرَ الآخرَ في القبو ..

بعدَ مدةٍ أخرجتنا وصرنا نتجاذبُ حديثنا ..

أخبرني عن الفئران ..

فـ ذهبتُ بـ خيالي لـ أعرفَ شكلَ الفأر ..

لكني نسيتُ كيفَ أعرف شكلَ الأشياء ..

فـ أعدتُ الذاكرة َ منذ بدايتها :

فراولة ..

ملبس ..

طعمُ الحصان ..

أصبعُ أخضر ..

وفجأة ً اكتشفتُ شكلَ الفأر ..

حينَ وجدتُ الجرحَ الغائرَ في يدِ صديقي ..

حينها أدركتُ أنَ الفأرَ يأخذ شكلاً " جائعاً " ..

يأخذ ُ شكلاً يُنقنُ اقتناصَ اللقمة ..!

(40)
مائت المشرفة ..!

يا إلهي لا أصدق ..

خبرُ نزلَ كـ صاعقةِ ليل ..

فـ ركضتُ إلى أعلى المينم ..

وأخذتُ أصرخُ كـ ذئبٍ يعوي :

مائت المشرفة ..!

لم يُشعلْ أحدهم مصباحهُ في ذلك الليل ..

يبدو أنَ المشرفة َ لا تحظى بـ شعبيةٍ في الحيَ ..

ولا يكترثُ لها أحد ..

مائت المشرفة ..

وأنا أخذتُ في اللهو طوال [الليل] ..

ولم أفكر مطلقاً في شكل الموت ..

أو طعمهِ الغامض ..

كنتُ أعلمُ مسبقاً بعدَ موتها ..

أنهُ حامضُ لـ درجةِ الاختناق ..

جثة ُ المشرفةِ اختفت ..

حملها أحدُ المسافرينَ ذو الوشاح ِ الأسود ..

وسارَ يجرُها خلفهُ بـ حصانه ..

المشرفة ُ التي لـ طالما وبَخنني ..

التي إحتضننني مرة ً واحدة ..

وبكت لـ أسامحها مرة ً واحدة ..

مانت ..

لـ ذلكَ شددْتُ صديقي من يده ..

ونزلجنا بـ أمانيَ كثيرة ..

أهمها أن أرى أبي ..

ويرى أمه ..

وأقلها أن يرندي ثوباً دافئاً ..

وأن أعرفَ أنا شكلَ الملبَس ..!

آآه ؛ ما أقسى الأيام ..

مانت المشرفة ..

هذا خبرُ أتمنى لو سمعتهُ حقاً ..!

(41)
زيادة ُ الطول ِ تشبهُ كثيراً فكرة َ :

إفلاتُ رأسكَ وكتفيكَ من الجاذبية ..!

(42)
صديقيَ الذين ِ مرا على ذاكرتي يوماً ..

أحدثا ثقباً هائلاً فيها ..

هناكَ من يأتي كـ هدهدٍ ينخرُ جذعَ ذاكرتكـَ لـ يستوطنَ بها ..

وهناكَ من يكتفي بـ الجلوس ِ في الطرفِ القصيَ ..

أما صاحبيَ ..

فـ أخذا جميعَ معاولِ الذكرى ..

وشقـَـا طريقهما إلى الفصِ الأخير من الدماغ ..

وهبطا إليَ كلَ منهم يشغلُ مساحةً تزاحمُ الأخرى ..

هبطا إليَ كـ فجرٍ هائلٍ يبدأ من منتصف السماء ..

وهبطا أخيراً إلى ذاكرتي :

بعضهم لـ بعضٍ عدوَ ..!

(43)
الأشكالُ التي ترسخُ في الذاكرةِ لا تـُمحى ..

حتى معَ نسيانها الضروريَ أحياناً ..

تعودُ إليكَ في شكلٍ " صُدفة " ..!

إلا شكلاً واحداً لا أتذكرهُ :

وجهُ أبي ..!

(44)
لـ المرةِ الأولى حاولتُ الكتابة ..

حملتُ غصناً قديماً لـ شجرةٍ ناضجة ..

وكتبتُ على طينٍ زحفَ إلى بابِ الميتم ..

- طينَ حاولتُ جاهداً ألا يقعَ في يدِ المشرفة -

وكتبتُ :

أبي ؛ حروفكَ الثلاثة تأخذُ نفـَساً كاملاً ..

تأخذُ شهيقاً يدفعُ بـ رئتيَ إلى الأرض ..

وتغمسُ قدميَ في سؤالٍ جارف :

كيفَ أعرفُ وجهكَ ..؟

(45)

بحثتُ عن شخصٍ سواي يعرفُ أنَ :

لـ الميناءِ حنجرةً تُصدِرُ صوتها عنها ..

كـ أنْ يُتمتمَ المرءُ بـ كلماتٍ غير مفهومة ..

ليسَ لـ أنهُ يبكي ..

ذلكَ لـ أنَ لغةَ الميناءِ مُبهمة ..!

(46)

اليتيمُ الذي أحملهُ في داخلي ..

الضميرُ الذي لم ينضجْ بعدُ لـ يؤنبني ..

والعقلُ الباطنُ الذي لم يمتلئ بعدُ بـ أشياءَ كثيرة ..

كلَ هذا الجوفُ الفارغ ..

والصدرُ الممتلئ ..

كلَ تلكَ الأشياءِ التي أخرجها من فمي :

مبعثرةً على الأرض ..

لـ أرتبها من جديد ..

وأغسلُ ما إنسخَ منها ..

وأبتلعهُ لـ يعودَ تلقائياً كـ ما كان ..!

كلَ تلكَ الأشياءِ التي تنسخُ وأخرجها ..

حينما تخرجُ أصبحُ شخصاً آخر ..

أصبحُ صبياً لا يحملُ هماً ..

ولا يُوَبَـخْ ويُحبَسُ في العلية ..

أصبحُ " طفلَ المشرقة " ..!

(47)

في القبو نزلتُ أنا وصديقي ..

كنتُ أريدُ الثأرَ من الفأر الجائع ..

لكنَ صديقي حذرني قائلاً :

إنَ أسنانهُ حادةٌ كـ مزاجِ المشرفة ..!

لكنني طمأنتهُ بـ أني معتادٌ على أمورٍ كـ هذه ..

أخذنا في السير قـُدُماً نحوَ الباب ..

يا الله ؛ كم كانَ صوتُ البابِ موجعاً ..

وكُوَنـُهُ ئنَ ..!

وكـ أنَ صوناً خلفَ البابِ يَصدُرُ من القبو ..

سرنا على رؤوسِ أصابعنا ..

كـ من يحملهم عملاقٌ :

ولا تلمسُ الأرضَ إلا أصابعَ أقدامهم ..!

وهناكَ تجلى الشيءُ الضخم ..

الذي إعتدلَ واقفاً ..

يملأ الفروُ جسدَهُ تماماً ..

وأخذ يقرضُ آذاننا بـ كلماته :

من أنتم ..؟

في الحقيقةِ لم أكن خائفاً من ضخامته ..

بل كنتُ خائفاً من صوتهِ فقط ..

صوتهُ يتدحرجُ من حنجرة الجوع ..

صوتهُ أحمقُ يحملُ سكيناً ؛ لا بدَ أن تخاف ..!

أجبتُ الفأرَ الجائع :

لـ ماذا عضَضْتَ يدَ صديقي ..؟

فـ قهقهَ كثيراً ؛ وارتمى أرضاً من شدةِ الضحكِ ..

حينها لم أتمالكْ نفسي ..

وأخرجتُ أصبعي الأخضرَ ورحتُ أطعنهُ في قلبه ..

أطعنهُ في رئته ..

وبـ لمحِ البصر وجدتـُني أطيرُ في الهواء ..

صفعتهُ مؤلمة ..!

كانَ صديقي يبكي كثيراً ..

ويصرخُ لـ الفأر :

سـ نقتلكَ أمي ؛ سـ نقتلكَ أمي ..

لم يكترث الفأرُ لـ ما قالَ الصبيَ ..

وانحنى - فاتحاً فكَيْهِ - نحوي ..

في تلكَ الأثناء ؛ كـ أنَ يداً :

كـ يدِ امرأةٍ اعتنت بي في غيابِ المشرفةِ سحبتني ..

ثمَ صديقي كـ ذلكَ تِباعاً سُحِبْ ..

فتحتُ عينيَ فـ وَجدْتـُني قربَ الشجرةِ العجوز ..

كانت تهتزَ ..

تهتزَ كثيراً أمامنا ..

وكـ أنَ جذورها تتحركُ في الأرض ..

وكانت تنقبضُ إلى الأعلى ..

وتندفعُ إلى الأسفل ..

ويصدرُ صوتَ مزعجَ جراءَ ذلكَ ..

الشجرة ُ العجوزُ نله ..!

- هذا ما قاله ُ صديقي -

لكنني قلتُ :

الشجرة ُ العجوزُ تقاتل ..

وما أن أنهيتُ حديثي ..

حتى سكنت الشجرة ُ عن الحراك ..

وارتختْ إلى الأمام ..

وظهرَ الدمُ من حفرةِ قربَ الشجرة ..

ومعهُ فروَ قليل ..!

(48)

الرياحُ تشتدَ في هذا الفصل ..

كم من المؤلم ِ أن يمرَ الشتاءُ عليكَ ..

وأنتَ في كامل ِ عُريكـ ِ من الأشياء ..

كنتُ أشاركُ صديقي اللحافَ الوحيد الذي تبقى ..

بعدَ أن كنا نلعبُ صباحاً في الفناءِ الأماميَ بـ ألحفتنا ..

فـ هبَ الهواءُ وحملَ معهُ لحافَ صديقي ..

بكى كثيراً ..

لكني طمأنتهُ تماماً :

اللحافُ يُصبحُ أطولَ يا صديقي في ليل الشتاء ..!

اللحافُ لا يكفينا يا أبي ..

وهوَ الذي يضعُ أصبعهُ في فمهِ تارة ً ..

وتارة ً يضمَ ذراعيهِ إليهِ هذا الصديق ..

رائحةُ شعرهِ صادقة ..

فـ هيَ تخبركَ بـ الضبطِ كيفَ عانى طويلاً ..!

وإغفاءتهُ العميقة ؛ لم تكن تدعُ مجالاً لـ نشكَ :

في أنَ التعبَ يبحثُ عن الأطفالِ في كلَ المنازل ..!

اللحافُ لا يكفينا ..

والكوبُ الدافئُ لم يعُد دافئاً ..

فـ الحراكُ يُوقظُ صديقي ..

وانتظرتُ حتى نامَ تماماً ..

وشربت ما بـ الكوبِ بارداً كـ يدِ عجوز ..!

الرياحُ تشتدَ هذا المساء ..

وصريرُ النوافذِ العاليةِ لا يهدأ ..

نحنُ وحيدانِ في مينمٍ كبير ..

مينمَ يبتلعُ أحلامنا ..

يُخبـؤنا داخله ..

يحبسنا فيه ..

يمضغُ أصواتنا ..

ويُوقدُ الأمنيةَ بـ حطبِ الإحباط :

أينَ أنتَ يا أبي ..؟

لا زالت الأمكنةُ تحملُ ذاتَ الصوت ..

إلا أنَ شكلها يتغير ..

الشارعُ الضيقُ يُفضي إلى مائدةِ الحيِّ ..

- هكذا كنا نسمي النافورة الكبيرة أنا وصديقي -

مائدةُ الحيِّ منسعةٌ جداً ..

فـ هيَ تكفي لـ أنْ يسبحَ بها الفأرُ الجائع ..

رغمَ حجمهِ الهائل ..

وتكفي لـ أنْ يشربَ منها الحصانُ العنيد ..

لكنها لا تكفي لـ يكبرَ أصبعي الأخضر ..!

مائدةُ الحيِّ يومياً تلملمُ ما في جيوبِ المارّة ..

طلبها مُجاب ..

فـ ما إنْ تمدَ لسانَ مائها ؛ حتى يُصفي لها الجميع ..

ويُشيرونَ إليها ..

بعدَ فترةٍ ليست قصيرة ..

أحدهم كسرَ فمَ المائدة ..

صارَ لسانها يخرجُ بـ شكلٍ عشوائيٍ ..

أصبحتْ كلماتها تطولُ المارّةَ والمتجولين ..

- أغلقوها -

هذا ما هتفَ بهِ أحدهم ..

لكنها حزنتْ كثيراً ..

وأخذتْ تلملمُ لسانها الطويل ..

حتى إختفى ..

المائدة ُ منسعة ً كثيراً ..

لكنها خالية ً مما يجعلها على قيدِ الحياة ..!

(50)

كم أشعرُ بـ الألم الآن ..

الطرقاتُ فارغة ً تماماً هذا الفجر ..

الفجرُ الذي خرجتُ فيهِ وحيداً من المينم ِ على غير العادة ..

حملتُ معي أصبعي الميتُ جراء َ قتال الفأر ..

ورحتُ أجوبُ المدينة َ الهامدة ..

الليلُ مُتعَبٌ جداً ..

لـ ذلكَ قرر إنزال َ سترتهِ من كتفيه ..

فـ أرى صدرهُ الأبيض ..!

أشعرُ بـ ألم ٍ كـ قبضةِ أحدهم داخل َ الحنجرة ..

وغصة ً في القلبِ كـ من يلمس َ بـ أنملهِ داخلي ..!

الطرقاتُ فارغة ً تماماً ..

إلا من صديقي الذي لحق َ بي كثيراً ..

حتى تعبت قدماهُ ونام َ قرب َ مائدةِ الحي َ ..

فـ حملتهُ إلى المينم ..

يا صديقي الهادئ :

أملكَ لم تحملكَ بـ يديها ..

وأبوكَ لم يفعل ..

فـ إعذرني إن تجرأتُ على ذلكْ ..!

(51)

لم أقترب من الموقدِ كثيراً ..

بضعُ خطواتٍ تفصلني عن الإحتراق ..

النارُ لا تتحدثُ إلا بـ ألغازٍ غير مفهومة ..

الحطبُ لا يُعذب في النار ..

الحطبُ لا ينطفئُ سُدى ..

الرمادُ الذي يُخلفهُ يُصبحُ مهرجاناً في اليوم التالي ..

أخذتُ أنا وصديقي بعضاً منهُ ورسمنا على وجوهنا :

شاربَ قطٍ ؛ وقرنَ على أنفٍ صغير ..

لم نكن نتناطحُ بـ الطبع ..

لكننا إختبأنا كلَ في مكانٍ ينسعُ له ..

خرجَ صديقي بعدَ فترةٍ يبحثُ عني ..

وأنا أختبئُ في حاويةِ تفاحٍ خشبية ..

كانت أسطوانيةً منتفخةً من المنتصف ..

ورائحةُ التفاحِ تملؤها ..

آهِ يا امرأةً اعتنت بي في غياب المشرفة ..

صوتكِ الآنَ يضمُ اختفائي ..

ودفئكِ يلمني من أطرافِ الأرض ..

كانَ صديقي قصيراً لا يستطيعُ النظرَ داخلَ الحاوية ..

فـ فضلتُ المكوثَ قليلاً أيضاً حتى مضى ..

وبـ التالي بكيت ..!

(52)

في اليوم الأول من المدرسةِ حضرتُ متأخراً ..

أمسكني المدرّسُ من يدي اليُمنى ..

وسارَ إلى المدير ..

فوجئتُ بـ السيدِ " زيس " جالساً خلفَ مكتبٍ كبير ..

مكتبَ كـ مائدةِ الحيَ إلا أنهُ طويل ..!

وخفضتُ رأسي أسفلَ المكتب ..

أبحثُ عن لسانٍ لـ هذا الشيء ..!

زيسُ الثريَ جداً ابتسمَ لي قائلاً :

لم أركَ في نافذةِ العليةِ منذ زمن ..؟

وهنا ركضتُ خلفَ المدرس واختبأت :

أنا لم أركَ من نافذةِ العليةِ منذ أن اشتريتَ المنزل ..؟

ابتسمَ زيس ، وقدمَ طبقاً مليئاً بـ الحلوى ..

لم آخذ قطعةً منه ..

انتظرتهُ أن يُخبرني عن اسم الحلوى كـ صديقي القديم ..

صرختُ :

أريدُ فراولة ..

قهقهَ زيس ..

وكدتُ أ ُخرجُ أصبعي الأخضرُ لـ أطعنه ..

لكنني لم ألحظ فروا على جسده ..

أخبرني الثريَ العجوز أنني أعجبه ..

لـ ذلكَ قررَ أن يُهديني ثوباً جديداً ..

وحقيبةً جديدة ..

آآه يا زيس ..

أريدُ صديقي القديم ..

وذكرياتي القديمة ..

أريدُ المرأةَ التي اعتنت بي في غيابِ المشرفة ..!

(53)

وأريدُ أن أحزن ..

كـ ما يحزنُ الأطفالُ عادةً على أيَ شيء ..

أريدُ أن يختفي شقَ شفتي العلويةِ في السفلية ..

وأن أنظرَ بـ رأسٍ منخفضٍ إلى الأعلى ..

أريدُ أن أبكي ..

فـ البكاءُ حقَ مشروعٌ لي كـ طفلٍ ناضجٍ لـ سببٍ ساذج ..!

وأريدُ أن " أريد " ..

لا حقَ لي في هذا المينم الباهت ..

الأشياءُ العاليةُ عاليةً هكذا ..

دونَ سببٍ واضح ..

والأشياءُ السفليةُ سفلية ..

وأنا " أنا " ..

وصديقي هوَ أيضاً طفلٌ مثلي تماماً ..

لا أريد حلماً أحلمُ به ..

أريدُ حلماً يتحقق ..

هكذا تمتدَ إليهِ أصابعي حتى نلمسهُ ونـُثلج ..!

أريدُ أن أحزن ..

فـ الحزنُ مشروعٌ في هذا العالم ..

والفرحُ إن جاءَ فـ لا بأس ..

أما الحزنُ فـ هذا حقي الأولُ في تركةِ أبي ..

ووفاةُ أمي ..

وذلَ المشرفة ..!

(54)

في المدرسةِ تعرّفتُ على صديقٍ جديد ..

لم يكن حميماً كـ ما أردتُ ..

لكنهُ صادقٌ على الأقل ..

في الاستراحةِ الأولى لـ ثالثِ درسٍ أخذناه :

ذهبتُ معهُ لـ نتسلقَ شجرةً في الفناء ..

أنا صديقُ الأشجار وهوَ لا ..

لـ ذلكَ وقعَ وجُرحتْ ساقهُ بـ بشاعة ..

حملني المدرّسُ مرةً أخرى إلى زيس ..

والذي قدّمَ لي طبقاً مليئاً بـ الحلوى ..

وأنا أنظرُ تحتَ المكتبِ إلى لسانٍ رأيتهُ أخيراً ..

أخبرني زيس الدافئ أنهُ لا يريدُ مني تسلقَ الشجرة ..

وإن فعلتُ ذلكَ سـ يقومُ بـ توبيخي ..

لا أكترثُ لـ توبيخِ زيس / المشرفة / طفلها / الفأرُ الجائع ..

لا أكترثُ لـ توبيخِ أحد ..

أنا رجل ؛ أقلهُ هذا ما اعتقدته ..

وحينَ تطورتَ الأمور من تسلقِ شجرةٍ ..

إلى قفزٍ بينَ الأشجار ..

أوقفني زيس يوماً كاملاً على قدمٍ واحدة ..

لـ ذلكَ عدتُ إلى الميتم بـ القدمِ الأخرى ..!

هنالكَ قابلتُ الشجرةَ العجوز ..

والتي كانت غاضبةً مني كثيراً ..

أخبرتني أنَ أبناءها غاضبون ..

وأنني آذيتهم عندما كانوا يرعونَ الصبيةَ في المدرسة ..

اعتذرتُ لـ الشجرةِ الأمَ ..

وانحنيتُ لها ..

ووقفتُ على قدمٍ واحدةٍ ويدينِ في الهواء ..

وتمايلتُ تمايلتُ تمايلت ..

حتى سقطت مني تفاحة ..!

(55)
الذي يفيضُ مني خارجاً ..

ليسَ بـ الضرورةِ أحمرُ اللون ..!

(56)
وأنا متعبٌ يا أمي ..

مجهدٌ كثيراً من وطأةِ الأيام ..

وقلقٌ عما سـ يؤولُ إليهِ مصيري ..

أريدُ أن أبكي ..

كي أتنفسَ أكثر ..

فـ الغصةُ تملأ قلبي إلى فمهِ النازف ..

وحلقي جافٌ كـ صحراء خامدةٍ في الداخل ..!

أنا متعبٌ يا أمي ..

أنظرُ إليَ بـ وجهٍ لا أعرفهُ في المرآة ..

وأنا بـ خير ..

بـ خيرٍ إلا من ذاكرة ..

الأشياءُ البسيطةُ يا أمي باتت أصعب ..

والصعبةُ انقضى زمنها منذ أمدٍ ليسَ بـ بعيد ..

ولم أخبركـ يا أمي عن ألمي ..

وعن الليل الذي لا أنامُ بهِ دونَ أن أتذكر ..

قدري أن أمتلكَ ذاكرةً لا تـُمحى ..

وقلباً يئنَ كـ مُقعَدٍ نماماً ..

أمي ؛ يا وجهَ السماءِ في شكلها الأول ..

يا صوتَ المرأةِ الأولى لديَ ..

المرأةُ الكاملة التي لا تنقصُ كلما أخذتُ منها ..

والتي لا تزيدُ كلما أثقلتُ عليها بـ همومي ..

أمي ؛ من أيَ ترابٍ يأتيني الوجع ..

أيَ طينيٍ أنا أو أيَ مائيَ ..؟

وحلقي جافَ كـ جرادةٍ مينة ..

متحطبَ كـ شجرةٍ سقطتْ منذ ألفِ عام ..

أخافُ أن أشربَ ماءً فـ تخضرَ ..

وأنا لا أشعرُ بـ الهدوء ..

ولا أشعرُ بـ الطمأنينة ..

أريدُ أن أنام ..

ولو في ثلاجةِ موتىً باردة ..

أريدُ أن أغفو بـ لا ذاكرة ..

بـ لا وجعٍ بـ لا ألمٍ بـ جفاف ..

أريدُ أن ينبخرَ حزني من جلدي لـ تنخفضَ حرارتي ..

أن ينبضَ قلبي دونَ إحباط ..

رأسي ممتلئٌ بـ حكايا اليتامى والمشردين ..

بـ قاطعي طريقٍ مظلم ..

ممتلئٌ بـ كلَ خطأٍ تشجبهُ الإنسانية ..

أنا أتألمُ يا أمي ولا يظهرُ ذلكَ في عيني ..

ولا أستفرغُ شيئاً منهُ على طاولةِ حديثنا ..

أخشى أن أضمكِ فـ تلمسي هذا الخوف داخلي ..

أخشى أن أضمكِ فـ تُفجعي بـ مقدار التعب ..

أن أكونَ ثقيلاً بينَ يديكِ كـ صخرةِ كِلس ..

أنا مجهدٌ ومرهقٌ ومنهكٌ ..

وصوتكِ الذي يتخللُ أوردتي فـ يمشطها من الحزن ..

ويستوطنُ داخلي ليلاً كاملاً كـ جنديٍ نبيل ..!

أخشى عليكِ مني ؛ ومنكِ عليَ ..

أخشى على كلينا منا ..!

ماذا حلَ بي ..؟

(57)
أوردتي صدأةٌ بـ حزنٍ قديم ..!

(58)
يقولونَ أني بـ خير ..!

كنتُ على غمامةٍ بيضاء ..

لكنَ الوريدَ الخارجَ مني :

يمتدَ طويلاً إلى قلبٍ يَقـْطرُ تلقائياً ..!

ولـ أني لستُ نائماً أو في حالةِ إفاقة ..

فـ قد كنتُ أسمعُ أصواتهم من بعيد ..

رغمَ قربِ المسافةِ بيني وبينهم ..

كـ أنْ تشعرَ بـ ألمِ أحدهم وهوَ بعيدٌ عنكَ ..!

الوريدُ يهتز ..

طرفهُ دقيقَ جداً كـ مسألةٍ شائكة ..

وطرفهُ الآخرُ ينتفخُ كـ بالونِ العيد ..

أنا ملقىً لـ تأكلَ مني الأرض ..

وتـُنبتني السماءُ على مهل ..!

قالوا أني بـ خير ..

رغمَ ذلكَ لم أشعرْ بـ ما قالوا ..

ولم أشعرْ بـ سوئي أيضاً ..

حالتي تسمحُ بـ شيءٍ واحدٍ فقط :

النسيان ..!

وفي النسيانِ ما يجعلكَ قادراً على التركيز ..

كـ أنْ تنسى جلوسكَ بينَ أربعةِ أشخاص ..

وتركزَ على شخصٍ خامسٍ ليسَ معكم :

تـُرى كيفَ هوَ الآن ..؟

النسيانُ أولُ حاسةٍ لا نــُلمسُ بــ اليد ..

يليها الخوفُ والشكَ والفرح ..

الحزنُ ينجسدُ دمعاً ..

الفرحُ يحبسُ أنفاسكَ ..

أما الخوفُ فــ لا ..

الخوفُ ما بينَ هذينِ الإثنين ..

فــ هوَ ينجسدُ كــ رعشة ..

ويُحبسُ فيكَ كاملاً إلا وجهكَ ..

لــ ذلكَ نبدو شاحباً لــ من يراكَ ..!

(59)
ماذا أفعلُ هنا ..؟

حينما فقدتُ كلما كسبتُ من ضوء ..!

الثلاثاءُ كانَ ثقيلاً جداً ..

والصباحُ الذي إبتدأ بــ لعنةٍ لم يزل حتى الآن ..

رغمَ رحيلهِ المفاجئ ..

أنا لا أدركُ كم منَ الأحلامِ تمنيت ..

لكني رغبتُ بــ حلمٍ واحدٍ يتحقق ..

ألمسهُ فــ نــُثلجُ يدي ..

لكنها تهشمت تماماً عن بكرةِ الساعد ..!

(60)
[خروجٌ عن النصَ مقصود]

أنا الآنَ أصغرُ من ذي قبل ..

وأكبرُ من المعناد ..

لا ألوي على شيء ..

الصمتُ الذي مارسنهُ منذ البارحةِ إستوطنَ بي ..

وأخي ؛ والذي يكبرني بـ عامين ..

أحضرَ كوبَ قهوتي كـ المعناد ..

لكنهُ فارغ ..!

أحياناً ؛ وحينَ تجبركَ العاداتُ على فعلها ..

لا بدَ أن تمثلها بـ مهارة ..

كـ أنْ تحملَ كأسكَ في الثامنةِ والنصفِ مساءً ..

وأن تدخنَ سيجارتين ِ أيضاً ..

لكن ؛ لا بدَ أن تمثلَ جيداً أنكَ تفعلُ كلَ هذا ..

ولو كانَ كوبكَ فارغاً ..

أو أنكَ لا تفتحُ شفتيكَ لـ سيجارةٍ فـ تدخن ..

بعدَ فترةٍ سـ تضطرُ إلى أداءِ دوركَ في تمثيل أنكَ حيَ ..

فـ تفيقُ صباحاً ..

وتضعُ يديكَ على وجهكَ وتفركهُ جيداً ..

وتسيرُ إلى الثلاجةِ وتشربُ كوبي حليب ..

ربما ؛ وبعدَ أيام قليلة ..

لا تضطرُ إلى تمثيل ِ شيء ..

ذلكَ لـ أنكَ إقتنعتَ بـ أنكَ مشلولُ تماماً ..

وهذا يجعلكَ دوركَ سهلُ جداً ..

كلَ ما عليكَ هو أن تجلسَ وحيداً في غرفةٍ مظلمة ..!

(61)

في الصيفِ كانَ النهارُ طويلاً ..

وكانَ المينمُ حاراً كـ فرنِ الخباز ..

الأمرُ الذي يضطرني إلى قراءةِ كلَ شيء ..

لوحاتُ الإرشادِ المنهالكةِ في الممرات ..

كتاباتُ الصبيةِ الذينَ كانوا هنا من قبل ..

ماركاتُ أطباق الطعام الصدئة ..

والتي لا يأكلُ بها سواي وصديقي الجديد ..

وكـ ذلكَ طعامُ الكلبِ العجوز ..

نسيتُ أن أخبركم عن الكلب العجوز ..

عندما كانَ جروا - كـ ما تقول المشرفة - ذاتَ يوم ..

عضَ الكلبُ ساقها من أسفله ..

في محاولةٍ فاشلةٍ أن يلفتَ انتباهها إلى أنهُ كلبُ حراسة ..

والغريبُ أنهُ كلبُ صيدٍ قد تمَ تجاهل قدراته ..

وعدمُ تدريبهِ وإطعامهُ بـ شكلٍ جعلهُ فريسةً لا صائداً ..!

حينما حكتْ لي المشرفةُ ذلكَ ..

نزلتُ أسفلَ الطاولةِ ونظرتُ إلى كعبها ..

لم أرَ آثاراً لـ أسنانِ جروٍ صغير ..

فـ فكرتُ :

إن عضَضْتُـها أنا الآخرُ فـ ماذا سـ يحدث ..؟

وتذكرتُ بـ أنهُ يتوجبُ عليَ النومُ على أربعةِ أطرافٍ خارجَ المينم ..

وأنْ أنشبثَ بـ عظمةٍ خلالَ النهار ..

والأهمَ ؛ هوَ أن أنبحَ بـ صوتٍ يُزعجُ الجيران ..

فـ يرمي أحدهم بـ كوبِ نحاسٍ على أمِ رأسي ..

لا ؛ لا أريدُ أن أقلدَ كلباً وأمرَ بـ كلَ هذا ..

الأطفالُ يقلدونَ أشياءَ كثيرة ..

لمَ لا أقلدُ البجعَ مثلاً ..

فـ هذا سهلٌ على صغيرٍ مثلي ..

ما ينقصني هوَ رقبةٌ طويلةٌ ربما ..

حينَ فقتُ من كلَ هذهِ الأفكار ..

سألتني المشرفة :

هلْ رأيتَ آثاراً ما ..؟

فـ قلتُ : لا ..!

حينها ضحكتْ كثيراً ؛ وقالت :

كنتُ قويةٌ وشابةٌ آنذاك ..

وعضةٌ بسيطةٌ لم تؤثر بي ..

امتعضتُ كثيراً لـ أنها دائماً ما تفخرُ بـ نفسها ..

رغمَ كونها أشبهُ بـ جرس الكنيسةِ القديم ..

فـ فمها والذي ابتلعني في حلمٍ سابق ..

كانَ كبيراً جداً ..

كبيرٌ لـ درجةِ أنهُ يحتاجُ دلوَ ماءٍ كاملٍ لـ تغسله ..!

(62)

الصيفُ هذا حارٌ جداً ..

والقراءةُ مستحيلةٌ معَ أوامر المشرفةِ المتواصلة ..

ذاتَ مرةٍ أحضرتْ لي قصصَ أطفالٍ قديمة ..

كانَ الكتابُ عريضاً لكنهُ صغيرٌ جداً ..

صفحاتهُ كثيراً ..

كـ أنها بـ ذلكَ تعاقبني بـ كثرةِ القراءة ..

لا يهمَ ..

ما يهمَني أنني وحينَ بدأتُ أقرأ ..

حدثتْ أمورٌ كثيرة ..

كـ أن يُصبحَ المكانُ مظلماً فجأةً ..

وأنفاجأ بـ شخصياتِ القصصِ تخرجُ منه ..

وتلتفَ حولي بـ لطفٍ :

أنتَ حررتنا ..!

كنتُ سعيداً جداً حينها ..

فـ قد حسبتُ أنَ المشرفةَ من حبستهم في الداخل ..!

منذ ذلكَ الوقت ..

صارَ لديَ أصدقاءُ جُدُدْ ..

وكانَ أحدهم بـ قرنٍ طويلٍ جداً ..

أظنهُ حصانُ الأميرِ زوريس ..!

وافتقدتُ الشمس ..

فـ هيَ من بينِ أصدقائي الذينَ أضعتهم ..

الشمسُ والليلُ وصديقي الراحل ..

فجأةً ؛ ودونَ سابقِ إنذار ..

قفزَ أرنبُ زهريَ اللونُ في حِضني ..

وبدأ يُنمنمُ بنت نعاويةَ وأمورَ أخرى لا أفهمها ..

وانتفضتُ ؛ انتفضتُ كثيراً ..

حتى تمددتُ ضِعفَـيْ حجمي ..!

وقالَ :

الآنَ خذ بـ ثأركَ من المشرفة ..!

فـ قلتُ : أيَ ثأر ..؟

قالَ :

رأينكَ تصارعُ الفأرَ في القبو ..

وجميعنا مُعجبونَ بـ شجاعتك ..!

قلتُ ثأرتُ من الفأر ..؟

لكنَ الشجرةَ العجوزُ قد قتلته ..!

قالَ وأنتَ سهلتَ مهمتها حينَ طعنتهُ بـ أصبعكَ الأخضر ..!

الآنَ فهمتُ ؛ شخصياتُ القصصِ ترانا دائماً ..

لـ ذلكَ وإن كبرُنا لا زلنا نلبسُ زيَ بابا نويل ..

أو نرتدي أزياءَ الأقزام السبعة ..

لا زالت القصصُ تنظرُ من خلالنا وإن كبرُنا ..

قلتُ :

وإن لم أشأ الثأرَ منها ..؟

قالَ :

عُد كـ ما كنتْ ..!

وتقلصَ حجمي ؛ لكن دونَ ألمٍ يُذكر ..

بدأتُ في اللعبِ معهم وأنا أفكرُ في هذا الأرنب ..

وسألتهُ دونَ تردُد :

لـ ماذا لا تجعلُ نفسكَ كلبَ صيدٍ ؛ أو ذئباً مثلاً ؛ أو حتى أبي ..؟

قالَ :

أبوكَ ..؟

قلتُ :

نعمْ أبي ؛ فـ هوَ قويَ جداً ..

حينها طارتْ سلحفةٌ عجوزٌ حولَ رأسي ..

ثمَ توقفتْ عندَ أنفي تماماً ..

وركزتْ بـ عينيها في عينيَ ..

وطارتْ مرةً أخرى ..!

قلتُ :

أبي ..!

وعادتْ لـ تطيرَ مرةً أخرى حولَ رأسي ..

وفعلتْ ما فعلتْ سابقاً ؛ ثمَ طارتْ بعيداً ..

والآنَ فهمتُ أيضاً :

أبي ليسَ رجلاً قوياً فـ حسبْ ..

لكنهُ إسمٌ جديدٌ لـ سلحفة ..!

(63)

يومُ الأحدِ عطلة ..

هذا ما أعرفهُ منذ صِغري ..

أما الذي لا أعرفهُ أبداً ..

هوَ كيفَ أقضي عطلتي يومَ الأحد ..!

(64)

مرة ً أخرى يُعاقـَبُ صديقي الجديد ..

لـ أنهُ قامَ متأخراً لـ وقتٍ يكفي لـ صنع ِ كعكة ..

المشرفة ُ كـ ميزان ِ ماءٍ دقيق ..

لا تتأخرُ لو لـ مرةٍ واحدةٍ في أيَ شيء ..

ضربتهُ كثيراً ..

ووبَخـتني لـ أني رمقتها بـ عيني صبي ٍ حانق ..!

صديقي الآنَ لا يُحركُ ذراعهُ الأيسر ..

ولا يستطيعُ الركضَ وإلا وقع ..

وأنا أملكُ قميصاً واسعاً عليَ ..

لـ ذلكَ ارتديتهُ معَ صديقي في آن ٍ واحد ..

ومشينا في الردهاتِ سعيدَين ِ جداً ..

الكلبُ العجوزُ رمقنا بـ نظراتٍ ساخرة ..

وعادَ لـ يأخذَ حصتهُ من النوم ..

في هذهِ الأثناءِ تكلمَ صديقي لـ المرةِ الأولى هذا اليوم :

متى يأخذُ هذا الكلبُ حصتهُ من الصحو ..؟

ضحكتُ كثيراً ؛ وربتُ على رأسهِ الصغير ..

إنهُ ودودُ ومرح ..

هذا ما يُعجبني في صديقي الجديد ..

وحدثَ ما لم يكُن في الحسبان ..

فـ المرأة ُ التي أحضرتْ صديقي قد أقبلت ..

ودونَ أن تنطقَ بـ كلمةٍ خلعت عنـَـا القميص الواسع ..

وأمسكتْ بـ ذراع ِ صديقي التي لا تتحرك ..

وقالتْ :

من فعلَ بكَ هذا ..؟

نظرَ إليَ كـ من لا يُريدُ إخبارها ..

فـ وجّهتْ سؤالها إليَ :

من فعلَ بهِ هذا ..؟

قلتُ :

سقطَ من سورِ المتيمِ الخلفيَ حينما كنا نلعب ..

هدأتْ المرأةُ وأعطتنا قطعتينِ من النقود ..

فـ ارتدينا قميصنا مرةً أخرى ..

وركضنا إلى المتجر القريب ..

لـ نشتري حلوى ..

لكننا تفاجأنا بـ المشرفةِ هناكَ ..

والتي رأتْ النقودَ بـ يدي ..!

سألتنا :

منْ أينَ لكم ..؟

فـ نظرَ صديقي إليَ كـ من لا يريدُ إخبارها ..

فـ تأوّهتُ داخلي [ليسَ مجدداً يا صديقي] ..!

وقلتُ :

سرقناها من تلكَ المرأةِ التي تجلسُ وحيدةً هناكَ ..

حملتنا المشرفةُ بـ يدينِ دفعةً واحدة ..

وكانتْ تتوعّدُنا كثيراً أثناءَ سيرها ..

حينَ وصلتْ إلى المرأةِ رمتنا أرضاً ..

وقالتْ :

اعتذروا ؛ والآن ..!

أزالتِ المرأةُ قبعتها الكبيرة ..

فـ صُعقتِ المشرفة ..

وسألتها :

كيفَ تفعلينَ هذا بـ صبية ..؟

أنا أعطيتهم النقود ..

حينها ركضنا أنا وصديقي إلى الميتم ..

تغمرني السعادة :

لقد أوقعتُ بـ المشرفةِ البغيضة ..

لا يهمَ ماذا سـ تفعلُ بي ..

الأهمَ أنني أوقعتُ بها ..!

(65)
أربعةُ أيامٍ والقبوُ ضيّق ..

مساحةُ حركتي لا تتعدى خمساً وعشرينَ حلقةً من سلسلة ..

ضئيلةً حينَ أريدُ قضاءَ حاجتي ..!

(66)
الشمسُ أشرقتْ ..

لـ أولِ مرةٍ نـُشرقُ الشمسُ منذ أيام ..!

كانَ الليلُ المتكررُ صامتاً ..

والضوءُ يأتي من شرفةٍ أسفلَ الباب ..

أظنها مدخلاً لـ كلبٍ عجوزٍ فيما سبق ..

لم أعُد أسمعُ العصافيرَ أو الديكَ ..

كلَ هذا الصمتِ يصمُ أذنيَ ..

تعودتُ عليهِ تدريجياً ..

حتى أدركتُ أنَ غنائي مزعج ..

وأنَ صوتي الحادَ كـ طفلٍ في الحاديةِ عشرةَ من عمرهِ :

أبشعُ من صوتِ سلسلةٍ تـُسحَبُ على الأرض ..!

لم أرى المشرفةَ طويلاً ..

ولم أسمعْ عن صديقي الجديد أيَ شيء ..

أظنهُ أصبحَ طعاماً لـ طفلِ المشرفة ..!

الشمسُ أشرقت هذا اليوم ..

والضوءُ يضربُ عينيَ بـ قوة ..

يُريدُ اختراقها بـ سرعةِ [الضوء] ..!

لا أستطيعُ قراءةَ تعابيرِ الأشياءِ التي أمامي ..

هذا الصندوقُ بدا لـ الوهلةِ الأولى كبيراً ..

وبـ حوافَ متعرجة ..

لكني رأيتُ من خلالِ كلَ هذا :

يداً تمتدَ نحوي ..

تحملني أو تسحبني إلى الأعلى ..

حينَ خرجتُ من القبو ..

وبدأت الأشياءُ تدخلُ إلى رأسي :

ضوءَ / مسارَ طويلَ / أبوابُ كثيرة / نافذتينِ فقط / مشرفة ..

حينَ بدأتْ تدخلُ إلى رأسي سقطتُ سريعاً ..

لم أحتملْ كلَ هذا دفعةً واحدة ..

الأمرُ الذي اضطرني لـ الدفاعِ عن نفسي بـ غيبوبة ..!

(67)
سـ ننتقلُ من هنا ..

أو سـ أنتقلُ وحيداً إلى ميتمٍ آخر ..

المشرفةُ بانت تكرهني ..

وأصبحتْ غريبةً أيضاً ..

لـ أولِ مرةٍ تضعُ المشرفةُ مسحوقَ تجميل ..

وضعتهُ بعدَ أن قابلت المرأةَ التي أحضرت صديقي الجديد ..

وبعدَ أن سمعنا صوتاً عالياً كـ سقوط ..

أو صوتاً عالياً كـ حادثِ سير ..!

ما أتذكرهُ أنني كنتُ أراها حالما نزلتُ إلى القبو معها :

وقد بدتْ أنها تضعُ حبراً في خدها الأيسر ..

وقلتُ :

المشرفةُ تلعبُ بـ الحبر كـ ما يلعبُ صبيةُ المدرسة إذن ..!

حملتُ حقيبتي ؛ وكانت ثقيلةً جداً ..

يبدو أنَ المشرفةَ رتبت ذكرياتها معي في الحقيبة ..

ولم تتركْ أثراً لي في المكان ..!

وحينما صعدتُ إلى العربة ..

كدتُ أدافعُ عن نفسي مرةً أخرى ..

لكنني تناسيتُ الفكرة ..

وقلتُ :

سـ أدعُ الأشياءَ تدخلُ إلى رأسي مرةً أخيرة ..

العربةُ التي صعدتها تحملُ نافذتين ..

أحدهما مغلقٌ بـ إعلانٍ لـ تأجير العربة ..

والأخرى كافيةٌ لـ أخرجَ جسدي إلى النصف ..

في الطريقِ لوَحتُ لـ بائعِ الخضار الذي أهداني أصبعاً ..

وانحنيتُ لـ مائدةِ الحيِ ..

التي أخرجتْ لساناً طويلاً لـ مرةٍ واحدةٍ كي تهزأ بـ رحيلي ..

ورأيتُ المينَ أيضاً ..

وخشيتُ أنهُ يجرَ المدينةَ خلفهُ كـ حمار ..!

حتى وصلنا إلى أعلى المدينة ..

حينها التفتُ بـ دهشة ..

ورأيتُ امرأةً تمسحُ ذراعَ أحدهم بـ منديلٍ مبلول ..!

ذلكَ الوقت ؛ تخيلتُ نفسي أقفزُ من العربة ..

وأتدحرجُ في الهواءِ طويلاً ..

حتى أصبحَ نملةً تخرجُ من جرحِ أحدهم الصغير ..!

(68)

أصبحَ الأمرُ مأساوياً ..

بعدَ ساعتينِ من المسير تقريباً ..

أصبحتْ معالمُ الأشياءِ حولنا متشابهةً إلى حدٍ بعيد ..

كنتُ أسألُ نفسي دائماً حينها :

لـ ماذا يتكررُ الجبلُ أكثرَ من مرة ..؟

أو لـ ماذا تلتحفُ الأرضُ بـ غطاءٍ أصفر ..؟

فـ الوقتُ ليسَ شتاءً كـ ما أعلم ..

الذي يُربكني في هذا كله :

تدحرجُ العربةِ في الهواءِ بينَ الحين والآخر ..

ولـ أنني صغيرُ البنية ..

فـ قد كانت حقيبتي أكثر اتزاناً مني ..

في هذهِ الأثناءِ عزمتُ على الذهابِ أماماً ..

بـ جوارِ السائق الذي يغني ..

ابتسمَ حينَ رآني ..

واخرجَ من جيبهِ قطعةَ حلوى ..

وقالَ :

لا تأكلها مرةً واحدة ..

فقط دعها تذوبُ في فمك ..

وسـ تنسى أنكَ في طريقكَ إلى مكانٍ آخر ..

ثمَ لفَ ذراعهُ حولي وضمَني بـ قوةٍ إليه ..

لم أشعر في عمري بـ مثل هذا ..

فـ الهواءُ الذي يسيرُ على وجنتي بـ عشوائيةٍ أصبحَ مرتباً ..

أصبحَ ناعماً كـ امرأةٍ عجوزٍ تدهنُ قطعةَ خبزٍ لـ ابنها ..!

لم أشأ بـ الطبع أن يتركني السائقُ بعدَ هذا ..

فـ قد طوقنهُ بـ ذراعيَ ..

وحاولتُ إمساكَ إحدى يديَ بـ الأخرى ..

لكنني عجزتُ عن ذلك ..

وتأوهتُ داخلي ؛ وقلتُ :

السائقُ الآنَ لهُ طعمُ [صمتْ] ..!

واستسلمتُ لـ فكرةِ الحلوى الذائبة ..

وحينَ بدأتْ الشمسُ تغرب ..

أذهلني ما رأيت ..

فـ قد أخرجَ السائقَ زجاجةً من خلفه ..

وأشعلَ الشمس ..!

(69)

صحوتُ على ارتطامِ رأسي بـ الأرض ..!

في العادةِ لا أتحركُ أثناءَ النوم ..

لكني أحلمُ بـ الأشياءِ التي تحدثُ كثيراً ..

وأكثرُ الأشياءِ حدوثاً بـ استمرار ليلةَ البارحةِ :

كانَ تدحرجُ العربةِ في الهواء ..

لـ ذلكَ حلمتُ بـ أني أطير ..

وأرى الأشياءَ من الأعلى ..

ثمَ أهبطُ لـ يرتطمَ رأسي بـ الأرض ..!

السائقُ ينامُ على حصيرٍ قديم ..

والحشراتُ تسيرُ جانبهُ في العراء ..

كـ أنهُ عاهدهم على ألا يقربهم فـ لا يقربوه ..!

أعجبني شكلُ أحدها ؛ رغمَ أنها لا تتحرك ..

يبدو أنها قضت عمراً هنا وقضتْ ..

كانتْ دائرية ً كـ كعكةِ العيد ..

حاولتُ أن أقسمها نصفين ِ فـ عجزت ..

ورحتُ أسمعُ داخلها ..

كانت تئنَ كـ البحر ِ تماماً ..

لم أكن أعرفُ ما هوَ البحر ..

لكني سمعتُ منذ زمن ٍ عنه ..

وصفهُ لي أحدهم فـ قال :

البحرُ أكبرُ من الشمس ..!

ولم أصدق بـ الطبع ما قاله ..

لا شيءَ أكبرُ من الشمس ..

لا شيءَ أكبرُ من شيءٍ كانَ ينسعُ لهُ جيبي ..!

(71)

كانت مفاجأة ً جعلتني صامتاً كـ حقيبة ..!

الرجلُ الأبيضُ الذي كنتُ أسيرُ معهُ ذاتَ عيد ..

والذي تبنى صاحبي القديم ..

كانَ في إستقبالي ..!

هذا مينمَ يرغبُ بهِ كلَ الأطفال ..

أو على الأقلَ هذا ما حسبته ..!

الرجلُ الأبيضُ حملني من ذراعيَ كثيراً ..

وضحكَ كثيراً أيضاً ..

وحينَ أدركتُ الأمر ..

قفزتُ من بين يديهِ إلى الأرض ..

وركضتُ إلى صخرةٍ عاليةٍ قرب السور ..

وعلوتها صارخاً :

الفرحُ رجلٌ أبيض ..!

وصمتُ كثيراً ..

حينَ فُتِحتْ نافذةٌ أعلى المينع ..

وخرجُ منها رأسٌ صغيرٌ أعرفهُ تماماً ..!